رحيل الشاعر مهدي محمد علي.. الحجّ إلى جنة البستان

مهدي محمد علي

ولد عام ١٩٤٥ في مدينة البصرة. تلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط والثانوي في البصرة، وأنهى دراسته الجامعية في بغداد حيث حصل على بكالوريوس في الآداب من قسم اللغة العربية بكلية التربية ١٩٦٨.

عمل عشر سنوات في مجال تعليم اللغة العربية وآدابها في مدارس البصرة المتوسطة والثانوية، ثم في الصحافة الأدبية منذ عام ١٩٧٩.

دواوينه الشعرية: رحيل عام ثمانية وسبعين وتسعمائة وألف - سرّ التفاحة - شمعة في قاع النهر- سماع منفرد - خطى العين- ضوء الجذور- قطر الشذى. البصرة.. جنة البستان وهو كتاب نثري/ شعري.

ممن كتبوا عن شعره: محمد الأسعد (الرأي العام الكويتية ١٩٨٣)، ومحمد مصطفى درويش (الثورة الدمشقية ١٩٨٤)، وعبد الكريم كاصد (الحرية ١٩٨٤)، وجنان جاسم حلاوي (النداء البيروتية ١٩٨٧)، وعبده وازن (النهار ١٩٨٧)، وحسين بن حمزة (تشرين الدمشقية ١٩٨٧).

طفل البصرة.. (جنّة البستان)

فيصل لعيبي

ضباب ساحة (أم البروم) يهبط الآن
يتخلل العابرين و عربات الحمل الثقيلة
يغطي وجوه المارة، ويخفي دموع الناس
الشمس بعيدة جداً.
والصحراء في المنعطف.
والليل قاب قوسين أو أدنى
همهمة السابلة ومحركات المكائن السيّارة
تنذر بالكارثة
×××
كانت الساحة مقبرة للأجداد
ثم حديقة للعشّاق
وكانت خمّارة (الوردة البيضاء) فيها
والندامى في حضن النعيم .
ثم صارت ساحةً لنقل الركاب والمسافرين
وملتقى الهاربين من الجيش وضحايا الحروب العبثية
بائعات الهوى ، مهربو السلع والعمّال العاطلون
يتوزعون جنباتها،
ينهون صفقاتهم ويعودون محمّلين بالهموم
توزع المناشير السرية والمناشير العلنية فيها
ويتبارى (تومان) مع (أبو أدور) الدلاّل
في جذب زبائنهم.
في ساحة (أم البروم) تنهض (البصرة) مثقلة
تترنح من فرط التعب والسهر ونكران الجميل.
×××
يركض الطفل (مهدي) إلى أخيه العاشق
ويوصل (السفرطاس) لأخيه الخيّاط النشيط .
يمارس هوايته المحببة : مراقبة " الأشياء والكلمات " .
يفتح نافذة البصرة على مصراعيها
ينادي من يراه، يدعوه للدخول مجاناً لفيلمه الجميل.
ينبه النائمين في السطوح، يدعوهم للنهوض.
فالبصرة تنتظر !!!
××××
وبعد سنين وطول انتظار
وسفرٍ ممل وعيش عسير
بعيداً عن جنته
يلوذ الملاك إلى روحه
كسرة خبز زاده
وخمر قليل.
يحاور نفسه بعيداً عن هواه
تلونت الدنيا وما ناله منها غير النوى
تنحى جانباً عن تلك الرياض
ومال القلب للياسمين
×××
تسامع مع بعض الصحاب
وكركر مخنوقاً بالدموع ..
فصعب عليه قبول الخراب.
تذكر الشط والمنحنى، تساءل عمّن يعود؟
وجال في صداقات السنين
مرت عليه سماحة وجه (أطياف)
ووجوه من يحب، تترقرق أمامه
كما الموجات الراقصة على وجه النهر.
يسير وحيداً في بلاد اليباب
وينوء بحمل يهد الجبال ....
من البصرة لبغداد ومن بغداد للكويت
ومن الكويت لليمن ومن اليمن للشام
هناك آثار دم الشاعر ونفحة الروح في القصيدة.

لندن في ١\١٢\٢٠١١

الشاعر المخلص لفنّه والوفي لتجربته الشعريّة

عدنان حسين أحمد

لندن

لم يكن الشاعر مهدي محمد علي اسماً عابراً في المشهد الثقافي العراقي على الرغم من الغربة المضنية التي عاشها منذ عام ١٩٧٨ حينما يمّم وجهه نحو الكويت هارباً من جحيم الاستبداد وحتى رحيله المُفجع في ٣٠ تشرين الثاني ٢٠١١.

وفي أثناء هذه السنوات الطوال تنقّل الشاعر الراحل بين عدن وليبيا وهافانا وموسكو وبعض العواصم الأوروبية قبل أن يستقر به المقام في حلب ليعمل محرراً لباب (أدب وفن) في مجلة (الثقافة الجديدة) التي كان ينشر فيها العديد من النصوص الأدبية المهرّبة التي تصله غالباً بأسماء مستعارة من داخل الوطن المسوّر بالبنادق والأسلاك الشائكة وعيون الرقباء السريين.

ثمة معلومات كثيرة لا يمكن إدراجها في هذا المجال الضيّق عن وفاء الراحل مهدي محمد علي للمثقفين العراقيين بشكل خاص وللثقافة العراقية بشكل عام، ومن يراجع أعداد مجلة (الثقافة الجديدة) سوف يكتشف من دون لأي ولع هذا الشاعر بالمنجز العراقي في الفنونً القولية وغير القولية. غير أن ما يحزّ في النفس هو المنجز الشعري للشاعر الراحل نفسه الذي لم يلقَ من العناية النقدية ما يستحقها، فلقد قدّم هذا المبدع على مدى ثلاثين عاماً أو يزيد عدداً من المجموعات الشعرية من بينها (سرّ التفاحة) و(شمعة في قاع النهر) و(سماع منفرد) و(خطى العين) و(ضوء الجذور) و(قطر الشذى)، هذا إضافة إلى كتابه النثري/ الشعري (البصرة.. جنّة البستان).

إن هذا المنجز الكبير وغيره من المقالات والشهادات والدراسات الأدبية حري أن يُفحص ويُراجع بأدوات نقدية تستغور معطياته الفنية العميقة التي اشتغل عليها الشاعر الراحل على مدى عقود طويلة داخل الوطن وخارجه.

وقد قلت ذات مرة في المقدمة التي كتبتها لحواري الطويل معه قبل أكثر من عشر سنوات ونشرته في حينه في صحيفة لندنية بأن (النص الشعري الذي يكتبه الشاعر مهدي محمد علي لا يمثل بالنسبة إليه هاجساً طارئاً، وإنما هو همٌّ يومي معاش يتلبسه في كل حينٍ حتى يخرج من أسار روحه أنموذجاً مكتملاً لا يحتاج إلى رتوش أو لمسات أخيرة. فالمفردة الشعرية في نصه تتموسق مع جاراتها، وتتماهى في النسق البنائي للجملة الشعرية. ولفرط عنايته بالإيقاع الداخلي نكاد نشعر بالمتدارك يخب في أرواحنا قبل المسامع.

أما بصدد الصورة الشعرية فقد أولاها الشاعر جلّ عنايته حيث تحتشد القصائد بعشرات الصور المذهلة التي تنداح من مخيلة الشاعر العفوية التي لا تعرف الاحتباس. ولو تأملنا أي نص شعري متأخر لاكتشفنا بيسر عمق الفكرة وطراوة المفردة الرشيقة، وعذوبة الموسيقى الداخلية التي تنساب من دون قسر أو افتعال).

لقد رحل الشاعر مهدي محمد علي في مغتربه السوري بعيداً عن البصرة الفيحاء، تلك المدينة الساحرة التي حملها في عينيه أينما حلّ وارتحل، حتى صار يوقع كل قصائده باسم (البصرة – حلب).

لقد رحل الشاعر مهدي محمد علي قبل الأوان مخلّفاً وراءه منجزاً أدبياً كبيراً يحتاج منا جميعاً الى أن نوليه جلّ اهتمامنا وعنايتنا، وربما لا تفي صفحة مكرّسة هنا أو أخرى هناك بحق هذا الشاعر المخلص لفنه والوفي لتجربته الشعرية التي ذهب بها إلى أقصى المديات التي أتاحتها مخيلته الشعرية المجنحة، لذلك أدعو المنابر الثقافية العراقية لأخذ منجزه الإبداعي عموماً مأخذ الجد ودراسته بعين نقدية رصينة تنتصف لعموم تجربته الشعرية والحياتية علّنا نتوصل إلى نتائج وخلاصات كان الشاعر نفسه يتوق لملامستها بعد هذا العناء الطويل الذي لا يخلو بطبيعة الحال من متعة ونشوة وجمال.

عن... مهدي محمد علي

شاكر لعيبي

يرتبط مهدي محمد علي في ذاكرتي بصورة المنفى، الشاعر في المنفى. ثمة كائنات تعيش منافيها بصمت بليغ، كأنهم يغتذون سراً من قوت الحنين إلى أرض مجهولة، خبزها وحده يكفيهم. كان مهدي واحداً منهم. الضجة لم تكن تليق به بل الصمت والعذوبة. لم ألتقِ به منذ زمن طويل، منذ سنواتَ بداية المنفى في سوريا، وما زالت صورته شاخصة بين عيني: الدماثة والصبر والإرادة غير المصرَّح بها من أجل هدف بعيد نبيل. اسم مهدي محمد علي يرتبط في ذهني كذلك بالبصرة، ليس لأنه ابنها البار، وليس لأنه كتب قصائد عنها ثم كتاباً نثرياً: "البصرة..جنة البستان"، بل لأن فيه شيئا من طبائعها: الكرم الروحي المتدفق عفو الخاطر، والمنساب من فضاء لا نعرفه.

يموت الشعراء الآن في العراق وخارجه من دون هوادة بعذابين: داخلي، لا يمكن لأحد أن يتخيّله سواهم، وخارجي لا أحد من حكام البلد الجدد قادر أن يرى فيه مأثرة أو حكمة. يموت مهدي محمد علي وعلى ضريحه سأضع وردة وشوكة، وردة مشوَّكة، الأولى تذكاراً لمآثرة، والشوكة تذكيراً بخراب عام ما زال قائماً، لم يتمن الشاعر حضوره في بلده.

من البصرة حيث يولد الشعراء إلى حلب حيث يهاجرون لا تبدو المسافة بعيدة في حساب الجغرافيا، لكنها مضنية في حساب الأرواح الباحثة عن خلاص وجودي. من كان يصدق أننا سنكتب الشعر ثم نموت في حلب؟

أدباء وكتاب ومثقفو البصرة ينعون الشاعر

البصرة/ خاص

بحزن عميق وأسف بالغ وبمرارة لا حدّ لها تلقى أدباء وكتاب ومثقفو البصرة نبأ وفاة صديقهم الغالي الشاعر (مهدي محمد علي) ليل٢٩ / ٣٠ تشرين الثاني ٢٠١١ في أحد المستشفيات بمدينة حلب السورية ، والتي يقيم فيها وأسرته الصغيرة منذ أكثر من عقدين. ويؤكدون أن وفاة العزيز (مهدي) خسارة فادحة لهم وللثقافة الوطنية العراقية الديمقراطية . لقد أجبر النظام البعثي المنهار الزميل الشاعر (مهدي محمد علي) ،عند نهاية عام ١٩٧٨ ، من خلال مطاردته ومحاولة اعتقاله والقصاص منه ،على الرحيل بعيداً عن مدينته ووطنه عبر بادية السماوة، في رحلة مضنية وشاقة استمرت ثمانية أيام، برفقة صديقه الشاعر (عبد الكريم كاصد) وبواسطة بعض المهربين نحو الكويت، خلاصاً من براثن الذئب البعثي الدموي المتوحش.

لقد بقي (مهدي) منذ ذلك التاريخ وهو يتنقل من منفى إلى منفى، وعينه وقلبه على وطنه العراق ومدينته البصرة التي خصّها بكتابه النثري المتميز (البصرة.. جنّة البستان) من إصدارات دار المدى للثقافة والفنون والنشر/ دمشق ١٩٩٨/، كما واصل التعلق بمدينته وناسها وأصدقائه فيها ، عبر كتاباته النثرية المتنوعة ، وقصائده التي ضمتها دواوينه الشعرية التي أصدرها في المنفى ، إذ صدر للفقيد الغالي ديوانه الأول /رحيل عام ٧٨/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي / دمشق ١٩٨٣ /. وصدرت له بعد ذلك المجاميع الشعرية التالية: سر التفاحة/دار بابل/ دمشق ١٩٨٧/، شمعة في قاع النهر/وزارة الثقافة السورية ١٩٩٥/، خطى العين/ اتحاد الكتاب العرب/ دمشق ١٩٩٥/ ، سماع منفرد/ دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق ١٩٩٦/، ضوء الجذور/ وزارة الثقافة السورية ٢٠٠١/ ، قَطْرُ الشَّذى/ الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠٠٨. والراحل الشاعر(مهدي محمد علي) ولد في البصرة عام ١٩٤٥ ونشر أولى قصائده في عام ١٩٦١. تخرج من كلية الآداب /جامعة بغداد/ عام ١٩٦٨ /ومارس التدريس في إعداديات محافظة البصرة ، حتى لحظة هروبه منها، وهو عضو هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة).

إن أدباء وكتاب البصرة ينتابهم الأسى العميق والمرارة البالغة على هذا الرحيل المبكر لزميلهم الشاعر والصديق الرائع (مهدي محمد علي) الذي لم يهادن في حياته المؤسسات السلطوية أو يتناغم معها قط ، تحت أي ظرف قاس مرّ به أو واجهه، ويؤكدون أنٍ (مهدي محمد علي) سيبقى مثلا يحتذي به في مسيرتهم الثقافية داخل مدينتهم، ووطنهم العراق وشعبهم الناهض من رماد القمع والتعسف والحروب العبثية الخاسرة والاحتلال ، والذي سيواصل بصلابة ومن دون تراجعٍ مسيرته كما واصلها مواجهاً الدكتاتوريات السابقة والراهنة. الذكر الطيب والدائم للصديق الفقيد الغالي الشاعر(مهدي محمد علي) والفخر بسيرته الحياتية الناصعة، ومنجزاته الأدبية والثقافية المتنوعة المتميزة و المتعددة.

من قصائد الفقيد: الرحاب

قلْتِ لي : كيف لو أفلحوا ؟!
مَنِ سيضربُ لي خيمةً عند أبوابهم للمناحةِ
لو أفلحوا ؟
غير أنك لم تسمعي عند بابي
ضجة الروح
تحت اصفرار المساء
والخرِيف الذي ظل في غرفتي
ساكنا كالغبار
الخريف الذي ظل يتٍبعني في المنافي !
أنت لم تعرفي طائرا
يختفي في زوايا المقاهي
في المحطات والحافلات
أو يقضٍي نهاراته في الغرف
طائرا يتفنن في نتف ريش الجناح
طائراً يحتمي بالقوافي
وظلام النهار
حُداء
خبّأوا ضوءهم عند منتصف الليل
سارت على هونها إبلٌ
كان حشد النجوم
زينة في سماء البراري
فليكن بعض هذي النجوم
"رجوماً"
وليكن بعض هذي النجوم الدليل
خوّضوا في مياه السهول
وضياء القمر
خوضوا واستمر السفر !
أنتِ لم تلمحي ناقتي
إذ تحيد عن النجم
غامضة السير
لم تأخذيها إلى السيل مثلي
ولم تبصري عينها وهي تغرق بالدمع
أو عنقها يشرئِبّ
وأضلاعها تستَطيل !
حداِء
قيلَ : هذي (اِلرحاب)
ثم سرنا نهاراً بأكمله
وسألنا .. قيل: هذي (الرّحاب)
وقطعنا من الليل أكثره
لم نسلِ.. غٍير أن الدليل
قال : لمّا نزل في (الرحاب)
أنت لم تعرفي
كيف صيَّرني البعد شاهدة
تتحرك فٍي الرمل
كيف أفقتٌ على نخلةٍ في القفار
جذعها كان محتشداً بالفسائل خضراء
والركِب يغتسلون من السيل غير بعيد
وبعضٌ يؤجج نار الغضا
والغروب انحنى في (الرحاب)
أنت؟! أم نخلة تلك؟
أم سِدرة المنتهى ؟
والمدَى
أهو الرمل ؟
أم لمعة الآل
أم غابة للغضا
أم خيام البُداة ؟